قراءة في كتاب
سيميولوجيا الصورة والبيداغوجيا
Sémiologie de l’image et pédagogie
Michel Martin

بن الاحرش مريم[1]
اشراف: د. محمد العربي بن مسعود

ملخص:
اتخذت الأبحاث والدراسات في مجال البيداغوجيا منحى آخر مع بداية القرن العشرين وذلك بظهور الصورة التي تعد شكلا من أشكال التواصل، ومن ثم فإن هذا المقال يعالج اشكالية عميقة مفادها: ما البعد السيميائي التواصلي لخطاب الصورة بيداغوجيا؟ والتي يعالجها من خلال قراءة تفحصية لكتاب: Michel Martin: Sémiologie de l’image et pédagogie.

Résumé:
A l’aube du 20ème siècle, les recherches et les études pédagogique ont pris une nouvelle orientation avec l’apparition de la photo considérée comme une variété de communication, d’où cette article qui étudie une problématique profonde : Quelle est la dimension sémiotique et médiatique du discours de l’image en pédagogie ? Il essaie de la traiter à travers une lecture critique du livre de : Michel Martin : Sémiologie de l’image et pédagogie

تعد السيميائيات تخصصا حديثا فرض نفسه في الآونة الاخيرة بوصفه نظرة مغايرة للرؤى التقليدية السابقة من حيث المبادئ والأسس، مما بوأها لأن تكون وسيلة فعالة لاستقصاء أنماط متنوعة من عمليات التواصل. إن أكثر وظيفة منوطة بالسيميائيات هي التواصل وحيث تعددت أنواعه فإن أكثر ما ينصب عليه اهتمامنا في هذا البحث هو التواصل،وبخاصة الصورة وأبعادها السيميائية الحاضرة في المجالات قاطبة، وصارت إذ ذاك تحظى باهتمام بالغ،ولا سيما في الجانب البيداغوجي ،فلا يمكننا أن نغفل عن حقيقة كون الصورة موضوعا للبيداغوجيا، ومن ثم فإن سيميائية الصورة ودورها في العملية البيداغوجية هو مايشتغل عليه العديد من الباحثين،وفي هذا الإطار يبرز عنوان لمؤلف جدير بالدراسة Sémiologie de l’image et pédagogie لكاتبه ميشال مارتن Michel Martin والذي سنتطرق له بالتحليل في مقالنا هذا .

يبدو عمل له من الأهمية الكثير، ولاسيما أن مؤلفه متمرس من البيداغوجيا حيث إنه دافع عنها دفاعا لا هوادة فيه، طرح اضافة الاستراتيجيات البيداغوجية إلى الأنساق المجردة، حيث كان تعامله كله ينصب عن الطفل في تركه يكتب ويرسم ويشرح ...الخ.

يعد عمله – سيميولوجيا الصورة والبيداغوجيا – الصادر عن المنشورات الجامعية الفرنسية PUF باريس سنة 1982 بعدد صفحات 287 وبحجم 23 سم، عملا يتميز بالدقة والوضوح، حيث شرح في مقدمته موضوع العمل البيداغوجي بالأساس، الذي يطمح من أجل خلق فرد جديد معد لتحليل الظواهر بدلا من أن يخضع لها.

إن محاولة استعمال الصورة واستغلالها في العملية البيداغوجية هو محور كتاب ميشال مارتين حيث يقول:" شرحنا في هذا الكتاب مسألة أن لسيميولوجيا الصورة تؤدي إلى بيداغوجيا

بحثية قابلة لتحقيق ثقافة كاملة وأكثر توازنا "[2] ، الملاحظ هو أن الصورة شيء جالب للانتباه عند الأطفال وقادرة على التواصل نظرا لاحتوائها على عدد كبير من الرسائل ، الألوان ، الرسوم...الخ هذا ما يطور العملية البيداغوجية ويجعلها أكثر انتاجا لكون الطفل هنا يقوم بالتواصل سواء مع زملائه أم مع المضمون في حد ذاته ، كما يعزز ذلك ثقة نفسية لديه " يصبح الطفل بمجرد انضمامه للفريق أكثر قدرة على التحليل لأنه بالفعل يتواصل فهو يلاحظ أن خطابه المتعلق بالصورة ليس هو نفسه الخطاب المستساغ من الشخص المجاور له... لذلك يجب علينا النظر في البيداغوجيا أو نوع التواصل المفضل والذي يرتكز على الجاذبية المكشوفة"[3].

أعمال رولان بارت، كريستيان ميتز، أومبرتو إيكو على وجه الخصوص، موجودة طوال الخطاب، كما نلاحظ استعماله المتكرر لمفاهيم: الأيقونة، تعدد الدلالة. لديه يقين بأن جميع الرسائل مشفرة، ويتم تحديد دلالتها من العلاقة القائمة بين جوانب الرسالة في جوهرها ومعناها. ويولي أهمية كبيرة للأعمال القرائية لـ Albert Plécy وأعمال السيميائيات التطبيقية التي يمكن توظيفها في الإشهارات والشرائط المصورة .

استعمل ميشال مارتن خطة عمل واضحة وقوية تتركب من:القسم الأول يعالج الصور الثابتة أما الثاني فيدرس الصور المتحركة (المتعاقبة)، كل فصل يقترح تركيب سيميائي للصورة وفي كل مرة تطبيقات بيداغوجية، مرفقة بتمارين، هذه التمرينات تحتل بالتقريب ثلث الفصل ما يدل على أهمية هذا العمل.

في الفصل الأول تطرق لسيميائية ثلاثة أنواع من الصور الثابتة: الصورة الفوتوغرافية، الصورة المرسومة، الصورة الاشهارية.

ابتدأ عرضه لسيميائية الصورة الفوتوغرافية بتعريفه للصورة الثابتة حيث يقول:

" الصورة الثابتة المقصودة في هذه الأعمال هي دائما صورة لشيء ما. من الضروري الإشارة إلى أنها ليست مرجعا، بل تشير اليه في بعض المماثلات التي تكون أقرب للحقيقة"[3]

لقد كان حديثه عن الصورة الفوتوغرافية ينقسم إلى شقين، الشق الأول عالج الصورة الفوتوغرافية العائلية، وشرح القوانين التي تمر بها الصورة قبل أن تمثل أمامنا وتتكون من:

01- الأبعاد: المرجع يتجلى لنا في ثلاثة أبعاد، المقاس عليه محدود في مساحة لا تعدى البعدين وعلى القارئ أن يتعلم كيف ينتقل من واحد إلى آخر.
02- المقياس: التصوير الفوتوغرافي في حالات نادرة ليس له أبعاد مماثلة.
03- المادة:الورق،الحبر، مواد التحميض، ...
04- الألوان: الأساليب التقنية تحاول الوصول إلى الدقة دون جدوى، حيث يأخذ في الحسبان تأقلم القارئ دائما.
05- الإضاءة: يتجسد على الورق الفوتوغرافي الانطباع الناتج عن الإضاءة.
06- المحتوى: يتحدد عبر جملة من الاستنتاجاتالتي قد تنتج عن عوامل خارجية، وتترتب حسبها الشروط الخاصة بالمشاهدة: شروط مناخية، شروط مكانية،شروط نفسية،شروط فردية...
07- التقاط الصورة: حين التقاط صورة فإنها لا تأخذ سوى جزء نركز عليه، فالآلات الفوتوغرافية الحالية لا تلتقط إلا بعض الزوايا من المجموع الكلي.

وبعد هذا كله يؤكد أنه من الضروري أن تكون للمرسل ثقافة بصرية تتعلق بأبجديات التصوير الفوتوغرافي وآليات التقاط الصور وشروطها.
إن المعلومة المهمة التي تصادفنا في أولى هذه الصفحات هي كون التصوير الفوتوغرافي فعلا تواصليا يمكن اعتباره أسلوبا لغويا.
ومواصلة لعرض القوانين المتعلقة بالصورة يذكر كذلك:

- التأثيرات التقنية.
- تأثيرات التقاط الصور.
- تأثيرات التركيب.
- تأثيرات الاستخراج والالتقاط.

بعد هذه التفاصيل النظرية المتعلقة بشرحوذكر قوانين الصورةينتقل إلى التطبيقات البيداغوجية.
عرض مارتين مجموعة من التمارين عبارة عن نصوص بعضها مرفق بصورة والبعض الآخر لا على تلاميذ السنة الخامسة والسادسة مع قائمة من الأسئلة، ويعرض أجوبتهم ليخلص بنتائج وتحليلات واحصاءات، ويواصل بعدها اختباراته المتنوعة التمارين والعروض.
يمكننا من خلال الصفحات التي عالج فيها الصورة الفوتوغرافية العائلية أننستنتج ما يجب فعله هو تعليم الطفل كيفية الملاحظة وكيفية إدراك أن ضوء النهار يمحي المعالم والتشابه الموجود، وكيفيةتحكمه بالصورة الفوتوغرافية حيث يمكن اعتبار ممارسة التصوير الفوتوغرافي بوصفه مدرسة للمشاهدة والملاحظة يقول ميشيل: " بالنسبة للتلميذ الصورة هي أكثر من تجسيد أو اعادة انتاج بل هي فعل ابداعي "[4].
بعد عرض لمجموعة متنوعة من الأمثلة والتمارين على التلاميذ من مستويات مختلفة تتم بمقاربة تتمحور حول صياغة العلامات الشفوية والتأثيرات التقنية يخلص بأن هذه المشاهدات لشيء واحد يستحيل ايجادها يضيف خاتما: " هي تقدم اضافات لا يمكن الاستهانة بها، يتعلق الأمر بالبناء السيميائي للمعاني "[5].
انتقل بعد هذا للحديث عن الصورة الفوتوغرافية الصحفية والتي حسبه تستعمل اسلوب الصورة الفوتوغرافية لكنها تلجأ الى تقنيات تختص بها فقط يعرض بعد ذلك بعضا من خصائص الصورة الفوتوغرافية الصحفية
ومن ثم فهو يستنتج بأن النص والصورة مترابطان بشكل وثيق، ويذكر أن هذا النوع من اللغة عبارة عن مزيج شفهي، ايقوني.
يلي هذا التمهيد النظري تطبيقات بيداغوجية يقترح مجموعة من الأمثلة تتعلق بالعمل المستقل يقول: " العمل المستقل يمكن اعتباره كوسيلة للمساعدة على التعلم، هناك تشارك بين الأفراد (المعلم) الذي يحاول تشجيع وتثمين عادة الاستقلالية عند التلميذ، وعلى المعلم أن يتدخل فقط لتوجيه النصيحة، أو القيام بدور المنشط أو المحفز "[6]
يواصل عرضه ويشير إلى أن هذا النوع من التعليم تجب ممارسته في مراكز التوثيق لماذا؟ حتى تكون جميع الوثائق في متناولهم ويتمكنون من العمل بالشكل الذي يناسبهم سواء فرديا أم جماعيا كان حيث تم تجريب هذا النوع مع تلاميذ السنة الرابعة والخامسة والسادسة، يخلص بأن هذه الدراسة المقارنة توضح بشكل جلي العلاقة المتواجدة بين هذا الكل، لطبيعة المعالج

ومن جهة أخرى اللغة المستعملة في الكتابة، المحتوى الضمني لحدث والذي يكون حسب اللغة المختارة مهما كانت المجالات المختارة.

الفصل الثاني من القسم الأول كان تحت عنوان: سيميائية الصورة المرسومة

يشير هنا إلى أن تحليل الأيقونة يسمح بالعودة إلى المرجع، ويذكر بأن لكل مقاربة نصيب من الجانب الفني فهي تقوم بإعادة احيائه.

- القراءات المتعددة للصورة الفنية:

يخلص إلى أن القراءات المتاحة على نوعين: القراءات البنوية، والقراءات التحليلية البسيكولوجية، هذه القراءات تركز كثيرا على مجال الرسم، في فترة معينة، تهتم بشخصية الفنان أو نفسية من يتلقى الرسالة.

في مجال السيميائيات البنوية علينا أن نميز نوعين من العناصر: العناصر الخارجية (الظاهرية) والعناصر الداخلية.

في الجانب التطبيقي يشير أولا إلى أحد الأخطاء التي يرتكبها الآباء والمعلمون أن التعليم الرسمي لا يمكن أن يكون له إلا بعض الاجراءات على تكوين الشخصية يشير إلى طريقة بناء المشروع التي تتم على النحو التالي[7]:

1 الرسام:حياته، أعماله،....

2 نمطه: المواضيع المعالجة.

التركيب.

الشخصيات والأشياء.

الألوان.

الرسم.

نصل الآن الى الفصل الأخير من القسم الأول والذي يتناول الصورة الإشهارية والتي من أنماطها الصورة البسيطة، الصورة الجمالية، الصورة الاستراتيجية، والصورة الإشهارية الحديثة.

يعرض بعد ذلك مختلف التطبيقات البيداغوجية لها ويعرض نتائجها منهيا القسم الأول.

القسم الثاني والمتعلق بالصورة المتحركة جاء بقسمين القسم الأول الشريط المرسوم والقسم الثاني يتعلق بالإنتاج والعروض السمعية البصرية.

في القسم الاول يعرف الشريط المرسوم بكونه فن شعبي بامتياز، قصة بصور متعاقبة مدعمة بنص تظهر كمسلسلات صوتية أو قصص كاملة في الصحافة.

في معرض حديثه عن التطبيقات والممارسات البيداغوجية لهذا النمط من الصور يؤكد على أن وضع البرمجة الذاتية ضروري للوصل للأهداف المرغوبة، ويصرح بفعالية هذا النوع من الصور حيث أنه 70 بالمئة من الأقسام الدراسية يقرؤون هذه الشرائط المصورة حسب إحصاءاته.

يبين بعد ذلك كيف أن الشريط المصور يمكن أن يكون أداة مفيدة وممتازة للبدأ في دراسة نقدية تتعلق بالصورة، القراءة الرمزية للصورة لها دوران، الأول للمساعدة على فهم الرسالة والثاني التحفيز على التطور في القراءة.

النماذج التي يتم عرضها على التلاميذ والتي تتطلب قراءة وتحليلا للصورة هي حسب ميشال مارتين:

- حذف النص الموجود في الفقاعات مع ترك التعليقات الخاصة بالكاتب ويطلب من بعض المجموعات اعادة تشكيل القصة.
- حذف التعليقات والابقاء على نصوص الفقاعات مع اعادة كتابة القصة أو الحوار.
- ملأ الفقاعات المتعلقة بشخصية ما.
- حذف نص واحد من القسيمات وايجاد القصة أو الحوار.

في الواقع وبدون شك فإن عددا كبيرا من الأنظمة الغاية منها تسهيل القراءة في الرسومات التي يحبها الأطفال في هذا النوع من السرد ويتذوقون جمالها، على القارئ أن يدرك وظيفتها ودورها.

خاتمة الكتاب جاءت بعنوان: من أجل بيداغوجيا البحث تناول فيها عنصرين:

1/ السيميائيات والبيداغوجيا:

تكلم أولا عن المفاهيم الأساسية المتعلقة بالتفكير البيداغوجي شارحا بذلك عملية التواصل، والتي تعد العنصر الأساسي الرابط بين السيميائيات والبيداغوجيا.

- المرسل:هو الذي ينتج الرسالة.
- المرسل إليه: هو الذي يتلقى الرسالة.
- الباث و هو جزء المرسل وهو الذي يسمح بالتلقي المادي (صوتية، بصرية ،...) .
- المستقبل جزء من المرسل إليه يسمح باستنساخ التلقي المادي لأعضاء الحواس، وصول الرسالة عند الإنسان على سبيل المثال.
- رد الفعل[9]Feed-back: تسمح للمرسل أن يصبح مرسلا إليه أي العملية العكسية vise versa.
- الرسالة: هي ما تجب أن يكون مشفرا من قبل المرسل ليتم ازالة التشفير فيما بعد من قبل المرسل إليه.
- الوسط المرجعي: يضم الملكة اللغوية الخاصة بكل واحد، الملكية النفسية،الحسية، أو بشكل آخر كل التجارب والمعارف التي تقود الطرفين لثقافة معينة، كتجارب الحياة، طريقة التفكير،التفاعل،الاحساس، الاثبات ويحدد العوامل التي تدخل في العملية ب:

أ عوامل التحليل.

ب عوامل التخزين أو الحفظ،الاستيعاب،التذكر.

جـ عوامل التحليل العقلي (الدلالة،الفهم،التكيف، المقارنة)

د عوامل ذات طابع نفسي (المنفعة، الرفض، ... والتي يمكن أن تؤثر على الأصناف الثلاثة الأخرى وقد تكون قادرة على الاخلال بشكل كامل أو جزئي بعملية التواصل).

إن الهدف من وضع الطفل في نظام التواصل لا يروم سوى جعله قادرا على استيعاب أفضل لكل أنواع المعلومة حيث إنه على المربي مساعدته في ذلك من خلال تذليل الصعوبات.

يعرف بعد ذلك بيداغوجيا التواصل الحقيقية بكونها:" التي تتضمن بالضرورة جميع العناصر التي تضع التلميذ في وضعية تجعله يناقش الشكل والمضامين تمنحه الحرية في الولوج الى مصادر المعلومة"[10]

الكاتب هنا يرجع الى نظرية التواصل التي ترى بأن تدرج المدلول يحدد بنية الرسائل، إذا أخذنا بهذه النظرية فان المواقف التي يدافع عنها واضحة (جلية) ومنطقية.

ينتج في الأخير إلى أن الصور تسلك طرقا متعددة للوصول إلينا:التلفزيون،السينما، الصحافة،المتاحف، الخ ... حيث يمكننا أن نعتبر هذه الوسائل جزءا من الحياة الاجتماعية ودراستها تضع الطفل في تواصل مع العالم ويشير إلى أن المدرسة التقليدية لا تمنح الطفل التطور.

ويقول ميشال مارتن في آخر العرض بأن "هذه النتائج ستبرهن على الوسائل المتاحة لتطوير فعالية هذا النوع البيداغوجي مع استمرار الاستغلال"[11]

العنصر الثاني في الخاتمة جاء تحت عنوان: من أجل بيداغوجيا البحث ابتدأه

بقوله: "تؤدي الدراسة المتعلقة بسيميائية الصورة إلى معرفة الغاية القائمة على بيداغوجيا التواصل "[12].

ويناقش هنا العملية البيداغوجية ونتائجها متعرضا لنماذج مع التلاميذ مؤكدا على أنه ليس عادلا أن نجرم المعلم لوحده فهو والطفل مقيدان، فأوقات العمل والقسم، وطريقةالتدريس، كلها أمور مفروضة عليه يجب أن يخضع تلاميذه لها.

ما يختم به بحثه هو أنه يمكن بالتقصيوالبحث البيداغوجيأن يستوعبالفرد كيفيةالتعلم.

وينتهي الكتاب إلى اقتراح أن نعتبر العمل المدرسي عملا بحثيا مبنيا على النشاط الفضولي والنقدي عند الأطفال هذه التوصية التي ينبغي علينا أن نتأمل مليا محاسنها.

إن هذا العمل يعد أحد ركائز البحث في سيميائية الصورة وكذا البيداغوجيا، لغته العلمية لغة واضحة دقيقة مدعومة بنماذج توضيحية (رسوم) وتمارين ونتائج،ويضاف إلى هذا إدراجه لملاحظات حول المراجع وهذا كله، أضفى على العمل من الجدية ما يجعلها مرجعا مهما للمعلمين والباحثين.

هوامش الدراسة :

ميشيل مارتن دكتور في اللسانيات، متحصل على دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الانسانية، مستشار توجيهي ومحاضر بجامعة نيس.

01- طالبة دكتوراه ل م د، جامعة زيان عاشور، الجلفة.*

02- MARTIN MICHEL , sémiologie de l'image et pédagogie , PUF , paris, 1re édition ,1982 ,P17.

03- Ibid P18 .

04- Ibid p24

05- MARTIN MICHEL , sémiologie de l'image et pédagogie P 44 .

06- Ibid ,P 46 .

07- Ibid , p 53 .

08- MARTIN MICHEL , sémiologie de l'image et pédagogie P 93 .

09- Ibid , p 232 .

10- Ibid , p 234 .

11- MARTIN MICHEL , sémiologie de l'image et pédagogie P 239 .

12- Ibid , P 240 .